سيمائية العنوان في رواية تلك المحبة للحبيب السائح

شريط بدرة

Abstract :

Cet article se propose d'appliquer une approche sémiotique de la titrologie de l'écrivain Habib SAYAH, dans son roman Cet amour-là, paru aux éditions ENAP en 2002. Cette œuvre résume l'Histoire de l'Algérie en partant de l'espace saharien, jusqu'à aborder son esthétique en retraçant « cet amour » à travers l'Histoire algérienne. C'est pourquoi, notre étude se veut un préambule théorique, dans lequel nous aborderons les enjeux de la titrologie, et une approche sémiotique du titre et des modalités de son décodage.

يتناول هذا المقال بالدراسة سيميائية العنونة عند الكاتب الجزائري **الحبيب السائح** ،وذلك بالتركيز على روايته **تلك المحبة** الصادرة عن منشورات أناب سنة2002 ،حيث تلخص الرواية تاريخ الجزائر بدءا من الفضاء الصحراوي إلى الغوص في جمالياته وتتبع تلك المحبة عبر التاريخ الجزائري . وعلى هذا الأساس ، تقوم دراستنا على النقاط التالية تمهيدا نظريا (ندرس فيه مفهوم العنونة)و مقاربة سيميائية للعنوان وتفكيكه
لقد استفادت النصوص الأدبية خاصة العناوين من الدراسات في مجال السيميائيات باعتبارها المنهج المساعد على القراءة والتأويل، وبما أن دراستنا تقوم على دراسة عنوان(تلك المحبة) كونه عتبة القراءة إذ يعد المفتاح الإجرائي الذي يقودنا إلى كشف خبايا النص وفك رموزه.باعتباره العلامة الدالة المسؤولة على تعيين النص والتصريح به ؛ بل يشتغل أيضا على أنه البنية الهامة المساعدة على تفكيك وتفسير البنية الكبرى(النص).
مما يختزن مجموعة من الإيحاءات والمعاني المضمرة ضمن هده العلامة (العنوان)، فيعرف الأول عن الثاني (النص) ليكون مساندا وموازيا للعنوان.

يعد العنوان " عتبة القراءة وهو من جهة بدؤها، به تستعين على النصوص ولم شتاتها، إنه محركها الأول"[i]. فهو" الممر الضروري الذي يخدم الحكاية في تلقيها إذ يشير إليها ويختصر مسارها"[ii].

من غير الممكن أن يستغني" العنوان والنص" عن بعضهما البعض"إذ بدون النص يكون العنوان وحده عاجزا عن تكوين محيطه الدلالي، وبدون العنوان يكون النص باستمرار عرضة للذوبان في نصوص أخرى، وعليه فإن العنوان كعلامة أو أمارة تشير إلى النص، يكون أشبه بالهوية ، أو اللافتة الاشهارية"[iii].

و"إذا كان العنوان أول عتبة تصادف القارئ ، فإنه آخر علامة توسّج النص بعد أن تكتمل صورته "[iv]، فتدل على محتواه العام . كما تغري القارئ بالتواصل معه انطلاقا من تعدد القراءة، وإخراج أسراره ومكنوناته من حيث المفاتيح الإجرائية للنص.

حيث يظهر العنوان بأشكال وألوان مختلفة "ويبرز متميّزا بشكله وحجمه ،وهو أوّل لقاء بين القارئ والنص ، وكأنه نقطة الافتراق حيث صار هو آخر أعمال الكاتب ، وأول أعمال القارئ وعند ذلك يبدأ التشريح ، والتفكيك "[v] من أول تصادم بينه وبين العنوان .

إذ يحتاج العنوان قراءة متأنية كونه علامة دالّة، تتضمن بعدين دلالي ورمزي ؛ لتختزن العديد من التأويلات تبهر القارئ وتستفزه يسعى من خلاله استكناه ما يضمره النص.

وعليه " يبقى ، مع ذلك ، خاضعا لاحتمالات دلالية مختلفة يصعب علينا إزاءها ترجيع هذا الاحتمال الدلالي أو ذاك"[vi] إذ تختلف دراسة العنوان من قارئ لآخر وننتهي بذلك إلى ما لانهاية من التحليلات والاحتمالات .

لقيت العناوين اهتماما كبيرا في الدراسات السيميائية ؛ باعتبارها أداة للقراءة والبحث "في المعنى لا من حيث أصوله وجوهره ،بل من حيث انبثاقه عن عمليات بناء نصوص شتى"[vii]

إن العنوان لغة تجسد ماهية النص وتختصره في كلمة أو جملة، كما يعتبر أيضا علامة سيميائية تهدف إلى احتواء النص من جهة ، ومن جهة أخرى تحيل إلى تأويلات أخرى خارج النص. أما اللغة التي يستثمرها الكاتب في العنوان ، فإنها نظام ترميزي و" إشاري سيميولوجي ، والكلمة إشارة تقف في الذهن لموجود عيني ، وهذا الحدث هو الدلالة "[viii]الذي نستنتجه للكلمة نفسها أو عدة معاني مختلفة على حسب رؤية الكاتب .

من الوهلة الأولى، يستوقفنا عنوان تلك المحبة ، يثير ما بداخلنا تلك المشاعر الدفينة العميقة لمعنى كلمة **"المحبة"** .

يحاول الكاتب من خلال النص إفراغ ذلك الكم المكدس من الحب الموجود في الذاكرة عبر الزمن؛إلى إبهار وإغراء المتلقي ،وإشعاره بجمالية النص قبل قراءته .مختصرا إياه في أدب الرحلة حاملا فنية وجمالية نصية.وعليه نلتمس رغبة الكاتب الحبيب السائح في تحريك شعور القارئ بمعرفة كيف تتم هاته المحبة متوّجا نصه بعلامة الحب ، والغاية من ذلك " لإدهاش القارئ أو زعزعة يقينية أو بث فيروس النخر في ذاكرته التذوقية ، وذلك بسبب استنادها على مخزون الذاكرة الخامل وإعادة تحريكه ، و إحيائه"[ix].

يشير العنوان في نفسية المتلقي العديد من التساؤلات؛ يسعى التقرب إليه، إذ لا نعرف قصدية الكاتب هل هو بصدد الإخبار أم الاستفهام أم التفسير أم التوضيح أم التعجب .ممّا يجعلنا نطرح العديد من الأسئلة لنشعر من الوهلة الأولى بأن العنوان فلسفي ، و صوفي .فيا ترى ما علاقة المحبة بالذاكرة وبتاريخ الصحراء ؟ وما علاقة المحبة بالفضاء الصحراوي ؟ وما علاقة المحبة بالمرأة التارقية؟ وما علاقة المحبة بالفقارات وسير الشعبية ؟وماعلاقة المحبة بالكاتب وبأدرار ؟وهل جاءت المحبة لتوصل الحب الإلهي والصوفية والتفاني لها في الفضاء الصحراوي ؟أم جاءت لتسرد وتحاكي العشق وعلاقة المحب بمحبوبته ونتحدث عن تلك المحبة، أم اتخذها الكاتب ليعلن عن ذلك الحب المكدس في الذاكرة.

أول ما يلاحظ على العنوان " تلك المحبة" وفق البنية التركيبة هو أنه مركب من " تلك" اسم إشارة والصفة " المحبة" الذي جاء في شكل جملة اسمية.

يحمل عنوان تلك المحبة معنى الذاكرة والهوية ووفية لها ، فهو يستحضر مجموعة من الأمكنة التاريخية المنسي في الذاكرة الجماعية، والتي تحمل الذكريات الجميلة واسم إشارة هو الذي يشير إلى تلك المحبة.

تمثل علامة(تلك) اسم إشارة وفي نفس الوقت استعملها الكاتب لتذكير تلك المحبة ، بحيث يعتبرها الدكتور بشير بويجرة " لغة تلخصت في اسم إشارة " تلك" في اسم الصفة " المحبة" لتضيع الكلمتان وسط كلمات وحروف أخرى افتراضية تسعى كلها للإجابة على ماهية النص ، ومبتغى شفراته المسيّجة هي الأخرى بأديولوجية عمق الكينونة الإنسانية "[x]

تدل علامة **المحبة** على المشاعر والود؛ إذ تحيل مباشرة تبعا لمادة (حب) في لسان العرب " هي نقيض البغض ، والحبّ: الوداد والمحبة"[xi]

انطلاقا من نص تلك المحبة تؤول علامة المحبة إلى التفاؤل ، والعشق ، والوّد؛ لتدلّ أيضا على الذاكرة العميقة المرتبطة " بالتاريخ، والمكان ، والأسطورة....إلخ

إنّ المتأمّل لنص تلك المحبة ، يلتمس هذا التفاوت والتعدّد الدّلالي لمعنى المحبة؛ إنها خطاب للجمال ورمزية الفضاء الصحراوي ، والوفاء للذاكرة والماضي.

حيث تأخذ المحبة عمقها في النص ، لتصبح علامة واضحة كونها تتكرر على صفحات نص تلك المحبة ،لتتضمن معاني كثيرة من القراءة الأولى للعنوان . وعليه فإن التأويل للعلامة نفسها يستدعي بالضرورة إلى فتحها على المحيط الدلالي ، إذ يقوم النص " بعملية يتم فيها الإمساك الدلالي عبر حدود تنظيمية"[xii] .

بناء على تعدد القراءات نشير إلى أن القارئ " مهما يكن منهجه لا يستطيع أن يصل إلى كلّ المعاني التي تحتضنها العلامة ، ولا يمكنه أيضا – ضمن مسلك تأويلي واحد – أن يوفق بين كل التأويلات الممكنة .على أنّ ما يضمن سلامة التأويل واستمرار في إنتاج الدّلالات المتنوّعة للعلامة "[xiii] ويبقى مع ذلك العنوان والنص يحتمل مالانهاية من الدّراسات والقراءات مع اختلاف القرّاء .

"واستلهاما لهذه المواقف التي تقطر حبا وعشقا والتي تصور أرقى درجات المحبة استلهم كثير من الكتاب العالمين مواقف تلك الشخصية التي تعلمت العشق والمحبة في الفضاء الجزائري....."[xiv]

وعلى هذا الأساس، يقدم الكاتب الحبيب السائح تلك المواقف المثيرة والموحية للمحبة ،لتعبّر عن السفر البعيد والجميل إلى الذاكرة ة ليتعرض الى شخصيات تاريخية وإعطائهم بعدا أسطوريا مثل ليون الإفريقي ومغيلي التلمساني منطلقا من الفضاء الصحراوي الغني بفقاراتها ونخيلها وقصصها(عن المحبة والعلاقات الإنسانية) ، وموروثها الشعبي ، المحمّلة بلغة الكهنوتية، والعجائبية والصوفية، بالإضافة الى عشق التاريخ .

إذ تمثل أيضا السفر عبر الحضارات والديانات وقصص عظماء التاريخ من " أندلس ، أدرار توات ، الى القدس وبلاد السودان ..... محتفية بالمحبة عبر العصور والأزمنة إذ أن الملاحظ والقارئ لنص تلك المحبة يلمح بأن نص تلك المحبة غني ومفعم بهاته السمات التي تعلن عن الحب حيث نجده " موزّع بين بذور المحبة المكدسة في جميع واعيتنا وذاكرتنا و عبر مراحل كينونتنا المختلفة"[xv] .

بناء على هذا تأخذ المحبة عدة تأويلات وسيروة المعنى عبر نص تلك المحبة ونمثله وفق

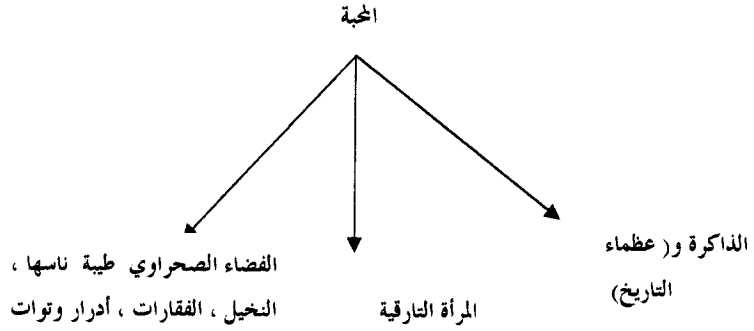

تتلخص لغة المحبة في نص تلك المحبة حسب قراءتنا في ثلاث مسارات أو دلالات لتتمحور حول الذاكرة ، وقصص الحب (المرأة) وجمالية الفضاء الصحراوي .

1-فالمحبة هنا تحمل دلالات متعددة أوّلها الذاكرة التاريخية وما جرى في الصحراء من قصص؛ وما قدمه البطل المغيلي التلمساني لحماية أرض الصحراء من الوافدين إليها،للحفاظ على دينها خوفا من التهويد ، أو تبشير الآباء البيض وحملات التنصير على رأسهم الأب الضابط دو فوكو . وتكمن أيضا جمالية المحبة في الانصهار والذوبان لمختلف الشعوب من يهود ونصارى ورحل الى هوية واحدة ودين واحد ،لتشكل نسيج جميل يدعّم الهويّة الصحراوية ويظهر ذلك التأقلم والتكامل والتعايش " منتحلين الإسلام مرة مستغلين كرمنا وسماحتنا ، مشهرين مرة تلك الأسلحة المروعة التي تنفت النار والموت ليخترقوا حصون قلوبنا وقلاع رباطنا "[xvi] وفي قول السارد " ...فكان ما وقع منه عليهم من القتل ومنهم عليه في الثأر ، هنا وفي تمنطيط وأسبع وإغزر .. فجدتي كانت تقول لي أهلك ممن عرفوا الله في هذه البلاد فرعوا للمسلمين حرمة وحفظ لهم المسلمون ذمة، فما أكرهوا على عقيدة ولا هم بها جاوزا حدود دينهم . وقالت لي اذكري أن من دفع عن أحد أجدادك سيف ثورة محمد التلمساني "[xvii]

2- توحي المحبة أيضا على دلالة أخرى، تلك المشاعر النبيلة الصادقة التي تنتهي بتلاحم الجسدين " تفرسها باسمة له ، فرأى القمر أعلاهما وجههما يسعدانه بتلك المحبة تعانقه فتلضه إليها تضغط نهديها ....."[xviii] حيث يصف تلك المرأة النبيلة الفاتنة بأن "يداها في كل ملمس لهما في بشرته المخملية تأخذانها إلى جوانية ضياء منساح من إكليل شمس بازغة

بمحاسن وجود التأمت في صورته كلما حننت بيديها خديه وذقنه وكامل وجهه راح جسدها يترقرق فيضمها أنفاسا وعطرا وسيلا ..."[xix]

إذ يرى الكاتب أن العلاقات الحميمية والمحبة لا تعترف بالعرق أو الدين بل بالمشاعر " إنها المحبة تخترق حد الدين والملة ، والعرق وكانت هي . لتوتر فطنتها وغريزة المرأة المعشوقة تدرك ذلك فيه بلا تصريح : قد أعلن توبتي ذات يوم وقد اهلك . فنفت له الخيار..."[xx]

بالإضافة إلى أن الحب لا يعرف لا ملة ولا دين ولا لون إذ يرى جبريل القسيس الفرنسي في مبروكة المرأة الصحراوية ذلك الوجه الجميل البريء المشّع " تسحره بشرتها بلون الرمل وتهومه أنفاسها برائحة فجر خريف الصحراء"[xxi]

3- وتدل المحبة أيضا على الفضاء الصحرواي وعن طيبة سكانها وعلى فقاراتها ونخيلها " إن الصحراء على قدر قساوتها فهي لا تزال تمنح الأمان وتعطي الاطمئنان وتقبل التعايش وذلك هو المثلث"[xxii]

ولعل تلك المحبة تكتمل باستقرار الكاتب بها واكتشافه جمال المكان وقصصه والتماسه محبة الناس من خلال المتن السردي التالي " فإن أدرار لا تسكن قلبي .هاهي بعيدة من أصابعي قابعة في كفك . فهب لي حنينا لا أنسى به أني كنت امرأتها ، وارسمني أثرا في مصنفك عنها وشما أكون حبره .فانغر بقلمك لطفا ، ثم ادع، غفر الله لكاتب المصنف وقارئه ومالكه . وقل تلك المحبة ".[xxiii]

الهامش :

) علام حسين العجائبي في رواية ليلة القدر للطاهر بن جلول رسالة ماجستير سنة 2001[1] السانية وهران ص 70

[1]) نفس المرجع ص **70**

)الطاهر رواينيه الفضاء الروائي في الجازية والدراويش مجلة المسائلة اتحاد الكتاب الجزائريين عدد 1شتاء 1991ص 15[1]

) عامر الحلواني سيميائية الأرض والهوية في قصيدة حصار لفوزية العلوي مجلة علامات عدد 29المغرب ص 69[1]

[1])عبد الله الغذامي الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ص 236

)رشيد بن مالك السيميائيات السردية الطبعة الاولى دار مجدولاي عمان الاردن 2006 ص 81[1]